

## الخاتمة

كانت أكثر العبارات التي يرددها صدام حسين في أخريات سنوات الحرب العراقية – الإيرانية :

– يمنز يا ترى، سيبقى في اللقطة الأخيرة من الحرب ؟

واللقطة الأخيرة التي يعيها هي المشهد الافتراضي الذي كان سيظهر فيه من تبقى حاضراً من اللاعبين المشاركين في الصراع السياسي والعسكري مع إيران يومئذٍ. كان الأمر بالنسبة له هو محاولة لقياس درجة المطاولة لدى مساعديه والمؤتمرين به بعد أن حرقت نيران تلك الحرب طواقم من أولئك المساعدين وكبار الضباط والمسؤولين السياسيين، ولا شك أن بين الحرب مع إيران و عملية الكويت مسافةً معنوية وسياسية شاسعة، ففي الأولى تدرجت الرؤوس بنيران السنوات المستديمة للحرب، أما في الثانية فقد غادر الكثير من المساعدين وكبار الضباط والسياسيين مواقعهم لأنهم استنتجوا مبكراً أم متأخراً أن هذه المعركة لا تعنيهم وأن الخروج من مواكبها سيبرئهم ويبرئ العراقيين جميعاً من آثامها، في حين لم تكن لأخرين من أولئك اللاعبين فرصة الإختيار إذ كانت رصاصات الإعدام هي الأسرع في إنهاء حياتهم في بعض محطات الموكب الجنائزي الطويل الذي بدأ صبيحة الذهاب إلى الكويت.

يمنز بقي في المشهد حتى الآن .. ؟ .. وجهمنز الذي سيبقى في اللقطة الأخيرة ؟

قد تكون ثمة حاجة لوصف (اللقطة الأخيرة) .. فيما أن تكون لحظة إقفال نهائي لملف الكويت وإرضاء ما ترتب عليه من نتائج .. وإما أنها ستغدو لحظة العودة لفتح هذا الملف ثانية والتورط في كارثة جديدة كبرى .. وقد تكون هذه اللقطة، أيضاً، هي لحظة مغادرة المسرح السياسي من قبل كل الذين إشتراكوا في صناعة الكارثة .. أو أنها ستكون لحظة الاقتناع ببلوغ الخط الأخير مما كان يرمي إليه هؤلاء من أهداف عندما يتيقنون من إستحالة تجاوز الخط الذي إنحسروا خلفه .. قد يكون هناك خلاف على وصف (اللقطة الأخيرة) غير أن موعد حلول هذه اللقطة سيقع حتماً ..



يمنز تساقط حتى الآن من أولئك الذين إشتراكوا بصورة مباشرة أو غير مباشرة في إعداد اللقطات الأولى من الكارثة التي بدأت في الثاني من آب سنة 1990 ؟

■ علي حسن المجيد : نائب ضابط في الجيش ترقى إلى رتبة فريق أول ركن وشغل منصب وزير دفاع، إشتراك في وضع الخطة العسكرية لإحتلال الكويت وأصبح حاكمها العسكري، وهو ابن عم الرئيس وبات يشغل، بعد ست سنوات، عضوية مجلس قيادة الثورة إلى جانب مسؤوليات حزبية هامشية.

■ حسين كامل : ترقى من رتبة رقيب عسكري إلى فريق أول ركن، شغل منصب وزير دفاع ورئيس هيئة التصنيع العسكري ووزير الصناعة ومشرف على وزارات التعليم العالي والنفط مع انه لم يكمل دراسته المتوسطة، وهو أحد أولاد ابن عم رئيس الدولة وزوج إبنته الكبرى، إشتراك في وضع الخطة العسكرية لدخول الكويت، وأشرف على قوات الحرس الجمهوري فيها، انشق عن العائلة في آب 1995 وعاد إلى بغداد بعد العفو عنه في شباط 1996 حيث أعدم مع عدد من أفراد عائلته.

■ سباعوي إبراهيم : أخ غير شقيق لرئيس الجمهورية، شغل موقع مدير المخابرات يوم الثاني من آب ومدير الأمن العام بعد الحرب، كان أحد ثلاثة أشخاص يديرون العمليات العسكرية والمدنية في الكويت، أُقيل من منصبه في تشرين أول 1995.

■ صابر عبد العزيز الدوري : كان مديراً للاستخبارات العسكرية وعلم بخطة إحتلال الكويت قبل إثني عشر يوماً من 1990/8/2، أصبح مديراً للمخابرات بعد إنتهاء الحرب، ثم أُقيل من منصبه أثر الخلاف بين مجموعتي (التكارتة) و (الدوربين) في صيف 1994. ثم عُين محافظاً للربلاء منتصف 1996.

■ عزيز صالح نومان : تولى منصب محافظ الكويت بعد إحتلالها، ثم أصبح عضواً في القيادة القطرية لحزب البعث بعد الحرب، أدار سلسلة من عمليات الإعدام والسرقة داخل الكويت.

■ إياد فتيح الراوي : كان قائداً للحرس الجمهوري عندما إشتراك في وضع الخطة العسكرية لعملية الكويت قبل أسبوعين من تنفيذها، ثم أصبح رئيساً للأركان بعد الحرب، و أُقيل من منصبه سنة 1995 ثم أُعيد إلى الواجهة الإدارية المدنية ليصبح محافظاً للتأميم مطلع 1996.

■ حسين رشيد التكريتي : أصبح رئيساً للأركان بعد منتصف آب 1990 وعلم بقرار دخول الكويت قبل أسبوع من مواعده وأبعد عن منصبه بعد الحرب، وهو يشغل حالياً موقع أمين سر القيادة العامة للقوات المسلحة.

■ فاضل البراك : شغل موقع مدير الأمن العام ومدير المخابرات وكان مستشاراً لرئيس الجمهورية عند الذهاب الى الكويت ولم يكن من بين المشاركين في الإعداد العملية، ثم عُين رئيساً للجنة إستشارية خاصة لتحليل الآثار السياسية والعسكرية لعملية الكويت قبل إعتقاله سنة 1992 ثم إعدامه بتهمة التجسس لصالح مخابرات أجنبية.

■ سعدي مهدي صالح : كان عضواً في القيادة القطرية ورئيساً للمجلس الوطني عندما حضر أول إجتماع سياسي يوم 1990/6/28 بحث في خيار إستخدام القوة العسكرية ضد الكويت، توفي بمرض سرطان الدم في إحدى مستشفيات عمان نهاية 1995.

■ سمير محمد عبد الوهاب : كان وزيراً للداخلية ولم يكن له دور مباشر في صياغة قرار 1990/8/2، وعُزل بعد انتهاء الحرب بتهمة التقصير والمسؤولية عن تدهور الأمن وإنتشار الجريمة داخل العراق.

■ لطيف نصيف جاسم : كان وزيراً للإعلام عندما أشترك في الإجتماعات المحدودة التي مهدت لعملية الكويت وتولى مسؤوليات سياسية وإعلامية رئيسية فيها، وخرج من عضوية القيادة القطرية لحزب البعث 1991 بعد أن أتهم بتقصيره في الإعلام، أُعيد إلى المسؤولية الحكومية سنة 1993 كوزير للعمل والشؤون الإجتماعية.

■ مزاحم صعب حسن التكريتي : رُقي من رتبة عقيد طيار إلى رتبة فريق طيار ليصبح قائداً للقوة الجوية قبل دخول الكويت، عُزل مؤقتاً في اليوم الأول للحرب ثم أُعيد إلى منصبه بعد إنتهاء الحرب، قبل أن يعين مستشاراً لرئيس الجمهورية ثم مسؤولاً عن حمايته، وهو من أبناء عمومته، وكان على علاقة وطيدة مع حسين كامل، لم يحاسب على الكارثة التي حلت بالطيران العراقي وعن تقصيره في الحرب. وتولى أيضاً الإشراف على وحدات شبه عسكرية تُعرف بـ (فدائي صدام).

■ سعدون حمادي : كان عنصراً أساسياً في بحث الخيار العسكري ضد الكويت بعد عودته من زيارتها يوم 1990/6/27، عين رئيساً للوزراء بعد الحرب، عُزل بعد خمسة أشهر وخرج من عضوية القيادة القطرية للحرب، ثم عُين مستشاراً برتبة وزير ولم يعد له غير دور إستشاري ثانوي في مجلس الوزراء حتى أُعيد ليصبح رئيساً للمجلس الوطني في نيسان 1996.

■ حامد حمادي : أتاح له موقعه كسكرتير لرئيس الجمهورية أن يكون من أكثر الأشخاص إطلاعاً ومشاركة في بلورة الفعاليات السياسية والأمنية عشية الثاني من آب 1990، عُين بعد الحرب وزيراً للإعلام ثم أُقيل من منصبه مطلع 1996.

■ الفريق ساجد كامل : قائد قوات الخليج المسؤولة عن العمليات العسكرية في مدينة الكويت، أُحيل إلى مهمة مدنية وعُين محافظاً بعد إنتهاء الحرب.

■ اللواء الركن عصمت صابر عمر : كان رئيساً لأركان قوات الخليج العربي، أُعدم بعد إنتهاء الحرب بتهمة رفض تنفيذ الأوامر.

■ اللواء الركن بارق عبدالله الحاج حنطة : معاون رئيس أركان قوات الخليج العربي في الكويت أُعدم بعد إنتهاء حرب الخليج.

أما وطبان إبراهيم الأخ غير الشقيق لرئيس الجمهورية فتولى مسؤوليات أساسية خلال الحرب عندما أصبح وكيلاً لوزارة الداخلية ثم وزيراً لها قبل إقالته من منصبه في شهر تموز 1995، أطلق ابن أخيه (عدي) النار عليه خلال حفل ليلي يوم 8-8-1995 فأصابه في ساقه وأقعده في داره.



وتسرح آخرون، أو تحولوا من مواقعهم العسكرية إلى أخرى مدنية .. فقد أُقيل مدير الأمن العام عشية الحرب ثم عُين محافظاً للنجف وأختير عضواً في القيادة القطرية ثم أُبعد عنها ليمكث في منزله منذ 1994، وتفرد عاصم الجعفري آخر سفير في الكويت للتجارة بعد أن نقل منها ثروة كبيرة، وعُزل أرشد ياسين المرافق الأقدم لرئيس الجمهورية وزوج شقيقته وتفرد لأعماله الخاصة بعد إفتتاح تورطه في تهريب الآثار العراقية إلى الخارج، وأُعدم صدام كامل مسؤول أمن رئيس الدولة بعد إنشاقه عن العائلة، وطُرد حسين زين (مدير طيران الجيش حتى صبيحة الثاني من آب 1990) من الخدمة بعد أن أمضى شهراً في السجن، وصار الحبيكم حسن علي التكريتي (الذي تولى بعده إدارة طيران الجيش) محافظاً للبابل، وعُين أحمد حماش قائد إحدى فرق الحرس الجمهوري محافظاً لديالى وصار صلاح عبود قائد الفيلق الثالث محافظاً لذي قار وعُين إياد خليل زكي قائد الفيلق الرابع محافظاً للسماوة. وعُين محمد عبد القادر معاون رئيس أركان الجيش محافظاً لنيوى ..

أما أبرز من تبقى في الخط الأمامي من أولئك الذين شاركوا في وضع خطط عملية الكويت أو تولوا مسؤوليات إدارة الأزمة والحرب، فمنهم أعضاء مجلس قيادة الثورة (عزة إبراهيم وطه رمضان وطارق عزيز وعلي حسن المجيد) وأحمد حسين رئيس ديوان الرئاسة وعزيز صالح نومان عضو القيادة القطرية ومحمد مهدي صالح وزير التجارة ورئيس لجنة نقل الممتلكات الكويتية إلى العراق.



يعتمل هاجس البقاء في نفس الرئيس صدام حسين كلما تناقص عدد الأشخاص القريبين منه يوماً بعد آخر ، غير أنه لا يجد في تفسير هذه الظاهرة إلا يكون الذين يتخلون عنه أشخاصاً أقل ثباتاً في المواقف الصعبة ..فقد تطلع –بعد ثماني سنوات من معركة تحرير (الفاو)– في وجوه من بقي حياً من المشاركين في تلك المعركة فوجد أن كثيرين قد غابوا بمن فيهم وزير الدفاع ورئيس الأركان وصهره وعدد من القادة العسكريين فخطب من تبقى منهم حياً أو داخل العراق وقال : (لو نظرنا إليكم من خلال الصورة التي أخذناها قبل سنة وقارناها مع الصورة التي نأخذها الآن لوجدنا أن هناك نقصاً في أشكال أناس غابوا عن الصورة، ولم يغيبهم أحد وإنما هم الذين غيَّبوا أنفسهم بأنفسهم).

مبني سيبقى حتى النهاية في اللقطة الأخيرة المنتظرة .. ؟ .. وأيهم سيسبق الآخر إلى الإنشقاق .. أم الى مقصلة الموت ..؟ ومن سيبقى إلى جانب الرئيس في ساعة الإحتفال الأخيرة..؟

## المشهد الأخير ..

منذ انتهت الحرب صار الرئيس صدام حسين يلوذ بخلواته .. فيذهب إلى أكوخ بُنيت من الطين في مزارع معزولة أو تراه يركن في مسكن عادي لا يستجلب الأنظار من مساكن بغداد وضواحيها .. تماماً كان آية الله الخميني يفعل بين الحين والآخر خلال الحرب مع العراق .. وهي العادة التي طالما تندر عليها الرئيس صدام نفسه، واتهم خصمه بأنه كان يلوذ إليها في كل مرة تمنى فيها القوات الإيرانية بهزيمة أمام القوات العراقية. لقد كانت خلوات الرئيس إحدى المناسبات التي تتبلور عنده فيها رؤية خاصة لما حدث .. أو لما ينبغي أن يقدم عليه من أعمال، وفي أجواء تلك الخلوات إتخذ كثيراً من القرارات الحاسمة .. كما انه خرج من بعضها بشعور نادراً ما كان يحدث ليلوم نفسه ويتعامل معها بعدم الرضا. فهل شعر الرئيس صدام بالخطأ فعلاً .. وهل إعترف به .. وكيف حدث ذلك .. ومتى .. ؟

.. هنا أقتطع حواراً خافتاً يعود إلى سنة 1993، لم يكن معداً للنشر، قال فيه الرئيس لبعض زواره من أصدقائه القدامى بعد إحدى خلواته :  
– لقد كبروها علينا .. كنت أريد أن أجزأ أذانهم .. وأنسحب .. لقد أخذنا التيار بعد أن (سويناها) في ساعة عصبية .. ولم يكن لأحد أن يتوقع أن تتضخم الأمور إلى المستوى الذي جرت فيه .. كبروها علينا إلى حد لم يعد فينا أن نحتمله بعد الآن ..  
لكن المؤلم، أن مثل هذا الإعتراف كان يجيء في لحظة يشعر فيها الرئيس أنه قد تراجع أكثر مما يستطيع، فلا يلبث أن يعاود في الصباح التالي تقديم عرض مناقض للحظة الإعتراف في الليلة السابقة، وكأنه يشعر بذنب مضاف، لأنه لم يصب أولاً .. ثم لأنه إعترف بعدم الصواب في لحظة ما ، فيسعى إلى إحتواء آثار ما يخلفه الموقفان من إنطباع لدى الآخرين، وربما كان ذلك من سوء حظ الذين يستمعون إليه من خارج الدائرة العائلية الضيقة، فكأنهم يشهدون على أمر كان ينبغي أن لا يحصل أمامهم .. مع أن الإعتراف إزاء الكارثة هو في النهاية نمط من الأعمال التي ينبغي أن تُؤدى في العلن وبالفم الملآن وأمام الضحايا والمتضررين وشهود التاريخ .. فلعل لمثل هذا الإعتراف أن يقلل من فداحة الخطأ .. وفداحة الهزيمة.  
إن هناك ازدواجية بينة تعبر عن إنقسام على الذات في رؤية الموقف، إنزُ ثمة ساعات شعور بالندم والتقصير، تقابلها ساعات إعتزاز بالخطأ وتمسك به .. وقد يستمر هذان الخطان متوازيين لزمان طويل آخر ..

.. ساعة الشعور بالندم تعبر عنها لحظات الإعتراف السرية بأن الأحداث قد كبرت على صانع قرار الثاني من آب .. أما ساعة الإعتزاز بالخطأ فتعبر عنها سياسات القسوة في الداخل ومحاولات إخراج أزمة الداخل على شكل صراع جديد مع العالم الخارجي ..  
كم كان كبيراً لو اعترف النادمون بأخطائهم أمام أهلهم .. لكن .. منتر سيعترف .. ومتى .. ولمــــن ؟



لقد تخلى الرئيس نفسه عن سيارات المرسيديس المصفحة، وصار يتنقل بسيارات الحمل الصغيرة التي إعتاد الفلاحون على إستخدامها لنقل محاصيلهم الزراعية من الأرياف إلى المدن، كما طلب مجموعة من سيارات التاكسي لتكون هي الأخرى وسيلة في التنقل خفية داخل بغداد وخارجها، واعتاد أن يلثم معظم وجهه ببشماغ أحمر

كما يفعل البدو عادة فلا يظهر من ملامحهم عندئذ غير العينين، ولطالما طرق أبواب منازل صغيرة لبييت عند نزلاتها في الساعات الأخيرة من الليل ثم ليغادرها في ساعات الفجر الأول بعد أن يكون الحراس قد قطعوا الإتصالات بين نزلاء الدار والعالم الخارجي طوال ساعات مبيته لديهم .. حتى أن عدد هؤلاء الحراس لم يعد كبيراً كما كان في السابق .. إذْ بات من المعتاد أن يصرف الرئيس حراسه على دفعات وهو يتوجه إلى أحد أماكن إختفائه، خلال الحرب، وحتى بعد مضي خمس سنوات عليها وهو يبحث عن مبيت له في أماكن مختلفة بما فيها مقبرة تكريت التي أغلقت منافذها ولم يبق منها غير باب رئيس واحد، بعد أن أُودع فيها سكن خشبي متنقل (كارفان) ليكون مهجعاً لرئيس الدولة في غير ما مرة.

لطالما، تحدث الرئيس عن أولئك الذي ينهزمون في دواخلهم، وعرضهم للنقد والتجريح، لكنه هذه المرة لا يشعر بالإطمئنان داخل قصوره ومنازله وفي مسقط رأسه، ولا يأمن إلى سياراته وحراسه ومساعديه .. فكأنه ارتضى لنفسه التخفي الذي كان يراه عند الآخرين مؤشراً على الإنحسار والعزلة والضعف .. ليس أمراً عابراً أن يضيق العِراق على رئيس الدولة فيه .. فلا يجد مهجعاً يبيت فيه غير مقبرة ؟ ...

أكانت هذه كل الأسئلة .. وكانت تلك كل الإجابات .. ؟ .. إن من المستحيل الظن بأن كل الأسئلة قد أثرت وأن الأجوبة قد بلغت نهاياتها .. وسيرضيني القول بأن كل ما كتبناه حتى الآن هو مدخل يقضي إلى اتجاه صحيح لرواية ما حدث .. وستكون تلك هي بداية المشهد أما نهايته فلا شك أنها ما تزال مفتوحة وحلبى بكثير من التفاعلات والآثار .. والمفاجآت، فكأنك تقرراً كتاباً ثم يتعين عليك كتابة فصول لم يضعها مؤلفه، وتحت هذا الهاجس تولدت فكرة وضع كتاب آخر يتعاطى مع أسئلة ما تزال محرمة حتى الآن .. من نمط : مبن الذي شجّع صدام حسين على المجيء إلى الكويت .. ؟ .. ومن الذي أعطاه الإحساس بأنه مقبل على مهمة سييسيرة .. ؟ .. وما الذي تبقى من تحالفاته القديمة في الكويت نفسها .. ؟ .. لا بل لماذا قامت تلك التحالفات .. ولمصلحة من جرى إغلاق ملفاتها .. ؟ .. أما السؤال الأهم الذي سيظل يبحث عن إجابة موثقة فهو : هل سيتكرر دخول الكويت .. بوجود صدام أو غيابة .. وما الذي يمنع وقوع الكارثة من جديد ؟ .. وهل غدت فكرة العودة إلى الكويت إحدى الخيارات المقبولة في العقل السياسي العراقي .. ؟ ..

قد تكون الفكرة مترسبة في أجزاء من هذا العقل خاصة تحت وطأة الشعور بالعزلة التي يمكن أن تنتج ردود أفعال نا طابع إنتحاري وتدميري ضد الذات والآخرين على حد سواء، غير أن هذا المنحى المضطرب في التقاط الخيارات يصطدم تلقائياً بحقيقة أكبر، هي أن ما وقع في آب 1990 ما زال يمثل كنموذج للإنتحار وإرتضاء تدمير الذات، ولذلك يصعب على صدام حسين أن يجد من يبرر قراره بسبب الكلفة الباهظة التي ترتبت عليه ، فهو قرار يخلو من الحكمة بما إبتدعه من معركة غير مسبوقة إستجلبت الكوارث على حاضر العراق ومستقبله وتطبيقاً على هذا التصور، ومن زاويته العراقية تحديداً، يمكن إنشاء الفكرة القائلة بأن من الأولويات الوطنية للعراق تحاشي الإقدام على مثل هذا العمل إحتراماً للمصالح العراقية قبل أن يكون إحتراماً لمصالح الآخرين.

وعليه فإن مقاومة نزعة الاحتراب هي إمتثال للمصلحة الوطنية العراقية، والتزام بمستلزمات الحفاظ على وحدة العراق وإستقلاله ودوره .. إننا إزاء ضرورة عراقية أكثر منها ضرورة إقليمية أو دولية .. وسنحتاج في الوقت نفسه إلى كثير من المصارحة التي تتأسس على المعلومات الصحيحة والتحليل الجري لكل ما يحدث أمام نواظرنا اليوم ويمكن له أن يتورم بعد حين ليصبح مصدر تهديد لإستقلال الدولتين وسيادتهما .. فرفض الإحتراب ومقاومة أي نزعة للعودة إليه يتوافق مع البحث المضني عن مستقبل يخلو من فرض شروط الإذعان وإشاعة مناخ الإنتقام والشماتة على حساب شعب العراق وكرامته ووحدة دولته ودوره في الإقليم والعالم ..

إن ثمة حاجة نفسية ومعنوية ملحة لإعادة تأهيل الجموع التي إشتبكت في لجة الصراع على الكويت، لأن هذه الجموع لم تكن صاحبة قرار بل كانت ضحية له، وستحتاج إلى عمل مركب وطويل المدى لتخليصها مما أصابها وأستوطن فيها من شوائب وترسبات وتداخل مفاهيم .. ويمكن أن يتم ذلك تحت منطوق : ماذا حدث .. ولماذا حدث .. وما الذي ينبغي أن لا يتكرر مرة أخرى .. وما شكل العلاقة بين الضحايا من مواطني العراق والكويت .. ؟ .. وكيف تعود العلاقة سوية بين هذين الشعبين .. لا بل هل سيكون ذلك ممكناً متاحاً .. ؟ ..

لقد مضت حتى الآن ست سنوات على الواقعة دون أن يتحقق الكثير من العمل لردم الفجوات وإنقاذ الضحايا من آثار الكراهية، بعد أن تساقط غبار الكراهية والحذر والتوجس على الجمهور المنتشر على إمتداد خطي المرور المتقاطعين ..

## أول المشهد..آخر المشهد

.. قبل أن أطوي صفحات هذا الكتاب عدت إلى أوراق قديمة كنت أدون فيها ملاحظات منقولة من محاضر إجتماعات قديمة تعود إلى ربيع 1990 عندما أستقبل الرئيس صدام حسين مسؤولاً عربياً كبيراً ولوح أمامه للمرة الأولى بأن الصراع على الخليج ونفطه سينفجر على خلفية التباين بين العراق والكويت .. وأقتطع هنا بعضاً مما قاله لذلك الزائر العربي الكبير :

– ( على الدوام ثمة (بابل) يبحث عنها الحالمون بحكم العالم .. ففي العالم القديم لم يكن بمقدور أحد أن يحكم الدنيا دون السيطرة على أعز وأكبر مدائنه وأقصد بها مدينة (بابل) .. أما اليوم فإن (بابل) هي النفط وليس لأحد أن يحكم العالم دون السيطرة عليه .. والنفط هنا .. إنه في الخليج حيث ستدور معركة كبرى في زمن لم يعد بعيداً عن هذه اللحظة).

منذ يومها أمضى صدام حسين الكثير من أوقاته بين آثار مدينة بابل التاريخية وما خلّفه فيها بانيتها الملك القديم (نبوخذ نصر) .. وبين الإعداد لإكتساح الكويت.